مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

مقال الولاية والصلاح النسائي

نورالدين احمين
باحث مغربي

2023

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 21 غشت 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023

مقال الولاية والصلاح النسائي

الملخص:

تروم هذه الدراسة الميدانية تناول أحد مظاهر المقدس، والذي يتجلى في ظاهرة الوليات الصالحات وأدوارهن الاجتماعية التبادلية من خلال التوقف على السياقات السوسيودينية التي ميزت التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي للمغرب عامة، ولمنطقة البحث خاصة (آسفي ونواحيها)، كسياقات يمكن أن تساعدنا في فهم خصوصية التدين المغربي، والذي يمكن أن نستشف أحد مؤشراته الدالة عبر كشف بنية التمثلات الاجتماعية للوليات الصالحات ومفعولاتها في الصورة التي ينسجها المجتمع المغربي حول المرأة الصالحة مقارنة مع الولي الصالح؛ وذلك عن طريق استجلاء واستكشاف مستويات حضور التاريخي في التمثلات الاجتماعية الراهنة للوليات الصالحات من حيث القداسة التي تمنح لهن داخل منظومة التصورات الجماعية ومن حيث أدوارهن الروحية.

تقديم:

يعدّ حقل الصلاح والولاية النسائية من الحقول الدينية التي لم تنل المكانة الوازنة في التاريخ الديني المغربي، حيث ظلت وضعية المرأة تعاني إلى جانب التهميش الاقتصادي والحقوقي تهميشا روحيا ورمزيا، بسبب احتكار القول في مجال الدين من طرف المؤسسة الدينية الذكورية التي عملت على إعادة إنتاج سيرورات الهيمنة الذكورية من خلال تأويلات فقهية للمقدس الإسلامي، تتماشى وهذه الهيمنة الذكورية التي تمكنت من تصنيف المرأة في وضعية الدونية والتبعية للرجل، عبر توسل تفسيرات ظاهرية لبعض النصوص الدينية والأحاديث النبوية مضفية عليها شرعية دينية، باستدعاء بعض الأحاديث الضعيفة والمستحدثة والمنتحلة المنسوبة إلى الرسول (ص) في إطار وضعية تاريخية واجتماعية تتعارض تماما مع الثورة الحقوقية التي مثل عليها العهد المحمدي، كمقابل للفترة الجاهلية التي عاشت فيها المرأة كل أشكال القهر الوجودي، إلى درجة أن مولدها ارتبط في الذهنية الذكورية الجاهلية بكل الشرور الوجودية. وربما تفسيرنا لذلك؛ أن المقدس الإسلامي كنمط جديد للوجود لم يستطع بالرغم من طابعه الثوري والحضاري الفصل النهائي مع العقلية التي كانت سائدة قبله، لما لهذه العقلية من قوة على الاستمرارية في التاريخ، واتصافها بالإحيائية التي تبقى في نظرنا من الخواص الثابتة في العقل العربي، والتي تظهر تجلياتها العميقة في التمثلات الاجتماعية للمرأة التي تبقى بالرغم من حركيتها وتطورها وتغيرها مشدودة إحيائيا إلى الماضي البعيد، كتراث إحيائي تجسدت معالمه الكبرى في الديماغوجية الدينية التي وصمت الفترة ما بعد المحمدية إلى حدود التاريخ الراهن، حيث نجد على مستوى المخيال الاجتماعي للمرأة الصالحة والولية تشابه وتقاطع مع وضعية المرأة بصفة عامة، إذ لم ينظر للمرأة إلا باعتبارها كائنا ناقصا وضعيفا ورطبا وناعما وشهوانيا وغرائزيا يختزل وجوده بأكمله في الغواية والفتنة ذات الارتباط في الذهنية الإسلامية بطبيعة كيانها الجسدي ذي الخصائص البيولوجية الشبيهة برمزية الأفعى الشيطان التي وردت في أسطورة الخلق، وتسربت إلى البناء الاجتماعي على شكل صورة نمطية تم استدماجها تمثليا لتنصرف على كل القطاعات الاجتماعية، بما فيها الحقل الديني الذي تمكن من خلاله الفكر الفقهي من تقعيد ومأسسة الوضعية الدونية للمرأة، من منطلق توجيه الاجتهاد الفقهي إلى الاختلاف الجنسي وجعله تشكل ثقافي لا ينظر فيه للمرأة كوعي للمغايرة، بقدر ما ينظر لها كاختلاف بيولوجي يأتي من الناحية الخلقية في المرتبة اللاحقة على الخلق الذكوري الذي يتميز بخواص بيولوجية سامية على الخواص البيولوجية التي طبعت الجسد الأنثوي، بفعل الخطيئة الآدمية التي كانت حواء سببها، فلحقها ما لحقها من دنس الدم الذي لا يمكن التخلص منه إلا بالولادة والنفاس وما يتبعها من تقسيمات اجتماعية للأدوار تجعل من المرأة كائن خلق للمتعة الجنسية والنكاح والتكاثر والتبادل القرابي الشبيه بالتبادل التجاري الذي عرضت فيه المرأة، كبضاعة لتبادل الامتيازات بين العائلات المهيمنة على إنتاج الرأسمال المادي. وعليه تصير كل التمايزات الاجتماعية ضد المرأة مبنية بتأثير البنى اللاشعورية الأسطورية والدينية التي تم استدماجها وكأنها شيء عادي يدخل في منطق انتظام الأشياء والعالم عبر عملية التبرير الديني الفقهي المحمول أيديولوجيا وثقافيا على تكريس آلية

إنتاج وإعادة إنتاج اللامساواة الجنسية بين الأنوثة والذكورة على مستوى التمثلات المنعكسة اجتماعيا في حقل البراكسيس الذي تتقوى محمولاته الدلالية والرمزية في عملية التصنيف الاجتماعي للأدوار بين الرجل والمرأة.

من هذا المنطلق، تمأسس المرتكز الإشكالي لهذه الدراسة التي تحاول من خلال البحث الميداني في منطقة عرفت بالصلاح النسائي الجواب عن إشكال محوري، يرتكز على أسباب الغياب أو التغييب الذي لحق المرأة في باب الولاية والصلاح، والتحقق على مستوى التمثلات الاجتماعية وبعض النماذج من النساء الوليات الصالحات من مكانة المرأة الروحية والرمزية في المنطقة المدروسة، ومقارنتها مع ما ورد في حقها من أوصاف ميثولوجية ودينية، بهدف تفسير الأسباب الموضوعية التي حالت دون أن تحتل المرأة نفس المكانة الوازنة التي احتلها الرجل في التاريخ الديني الموصوف بالمركزة الذكورية.

1 ـ الولاية النسائية في المغرب: نماذج نسائية من الديار الآسفية

من الملاحظ عند التأريخ لظاهرة الصلاح النسائي في منطقة عبدة، أنها ظاهرة لا تخرج عما يمكن قوله بخصوص المقارنة بين صلاح المرأة وصلاح الرجل في المغرب بصفة خاصة، والقطب العربي الإسلامي بصفة عامة، حيث نجد على مستوى تصفح الكتب المناقبية والتراجمية أن نصيب الأسد من الذكر والاستبيان كان من نصيب الأعلام من الرجال في مقابل النزر اليسير، مما ذكر من النساء الصالحات، ومرجع ذلك العقلية الذكورية التي طبعت الذهنية الإسلامية في تعاملها مع المرأة عامة، والمرأة الصالحة خاصة. ونظرا لذلك لم يكن أمامنا سوى الاستعانة بما ذكر من النساء في باب المناقب والتراجم ومقارنة ما ذكرن به من سمات الصلاح مع ما أمدتنا به الرواية الشفوية في المنطقة المدروسة، بهدف تكوين صورة عامة وأولية عن باب الصلاح في تاريخ المرأة المغربية التي تشكل المرأة المسفيوية أو العبدية الصالحة أحد أقطابها الأساسية، لما عرفت به منطقة أسفي من أخبار عن الصالحين؛ إذ لا نكاد نعثر على تجمع سكاني في آسفي ونواحيه، إلا ونجد أنه محاط بولي صالح أو صالحة وأكثر من ذلك؛ مما يفسر البعد الروحي الذي ميز هذا القطر الجغرافي من المغرب عبر التاريخ وإلى حدود التاريخ الراهن، الذي نسجل فيه استمرار الاعتقاد بظاهرة الصلاح من طرف شريحة مهمة من ساكنة أسفي، والتي لم تشكل فيه المرأة نشازا، بقدر ما أنها تموقعت على مستوى الذاكرة الشعبية في قطب الصلاح الذكوري، وحظيت بنفس المكانة الروحية التي حظي بها الولي الصالح، إلا في بعض الوظائف والأدوار السياسية التي سنأتي على ذكرها لم يكن للمرأة الصالحة المسفيوية العبدية نفس المكانة الوازنة التي لعبها الصلاح الذكوري، خاصة مع الولي الصالح سيدي محمد صالح الذي عرفت به أسفي تاريخيا.

1.1 ـ السياق التاريخي لظهور الولاية والصلاح النسائي بآسفي:

تميز تاريخ أهل آسفي بمغالبة الاستعمار ومناهضة نظم الحكم التي تعاقبت عليه، وفي ذلك نوع من الخصوصية الهوياتية التي ميزت هذا القطر من بلاد المغرب الذي يستفاد من خلال استقصاء الأحوال حوله،

أنه انفرد تاريخيا في العصر الوسيط بعلاقة متوترة مع نظام الحكم الموحدي الذي نهضت معالمه مستغلا الأزمة المجتمعية التي صار يعيشها الحكم المرابطي في أواخره.

ومن تم، فإن التساؤل الذي يظهر لنا بداهة طرحه، ونحن نحاول التأريخ لظاهرة ظهور الولاء الصالحي النسائي في المنطقة المدروسة هو: لماذا تميز سهل عبدة بمغالبة الحكم؟.

نرى أن الجواب عن هذا التساؤل، يقتضي منا استدعاء أحد المصادر المناقبية التي ظهرت في هذه الحقبة التاريخية بالذات (القرن السادس هجري)، ونقصد به الكتاب الذي ألفه ابن الزيات «التشوف إلى رجال التصوف»، ككتاب مناقبي اعتبر بإجماع المؤرخين حين ظهوره صنفا متفردا في الكتابة التاريخية، وفي نفس الوقت مصدرا مهما لاستقصاء أخبار زمانه؛ لأن مادته المناقبية تحوي من المضمرات ما يجعل تعامل الباحث معه يطرح أكثر من سؤال، فلماذا ظهر هذا الكتاب بهذه الصيغة وفي هذه المرحلة التاريخية بالذات التي كانت فيها الأيديولوجيا التومرتية في أزهى قوتها، وتتطلع إلى بسط هيمنتها على كل التراب المغربي؟.

جوابنا في ذلك، أن تشبيك العلاقة بين ظهور هذا الصنف من الكتابة، وبروز الأيديولوجيا التومرتية ليس بريئا أو محض صدفة؛ ذلك أن تأليف ابن الزيات في هذا الصنف من الكتابة هو في نظرنا محاولة أولية للتعريف بالعصر الذي نقصد به بعض معالم وخصوصيات الزمن التي دعت صاحب التشوف إلى أخذ مغامرة التأليف في ترجمة الرجال والنساء الصالحين خلال الفترة التاريخية المعنية، وهي محاولة تضمر في متنها الرغبة في التعريف بقضايا الصراع الديني بين أهل الصلاح الذين صنفهم صاحب التشوف في باب الدفاع عن الملة وأصحاب الحكم الذين يهدفون إلى طمس معالم الخصوصية الدينية التي قعد لها أجداد وأسلاف السهل الدكالي، ونخص هنا بالذكر أهل رجراجة وأهل شاكر، كرموز دينية داع صيتها داخل المغرب وخارجه، واقترن اسمهم بالتصوف في المغرب، الذي كان من نواتجه تزايد عدد الصلحاء في القرن السادس الهجري والمريدين الملتحقين بهذا الربط من القبائل الأمازيغية المشكلة للجماعات البشرية في سهل دكالة، كـ «قبيلة صنهاجة... والقبائل المصمودية المتكونة من: مشتراية وبني دغوغ وبني ماجر ورجراجة وهزميرة»[1] التي ستؤدي ثمن مناصرتها للتصوف ولأربابه بالتكالب على مقومات هويتها، عن طريق تهجير القبائل العربية الهلالية، بهدف تذويب هويتها ورباطها الروحي مع زعماء الطرق الصوفية الذين سيموقعون بالنسبة إلى الحكم الموحدي في جهة الجماعات المهددة للمشروعية أو الأيديولوجيا التومرتية، باعتبارها الكاريزما الروحية لاجتماع الناس حول المهدي ابن تومرت وأبنائه من بعده.

وفي نظرنا، ومن خلال ما أمدتنا به المصادر التاريخية، فأهل آسفي لم يتجاوبوا بالشكل المطلوب مع هذه الأيديولوجيا؛ لأنهم كانوا سباقين إلى التوحيد وعارفين بأمور الدين الصحيح؛ إذا ما صحت الرواية التي تقول إن رجالا سبعة من رجراجة زاروا النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذوا عنه الدين الحق. هذا، بالإضافة إلى

1 ـ أحمد الوارث: التيار الصوفي في دكالة زمن الرباطات ...، منشورات المجلس العلمي المحلي، الجديدة. 2011. ص79

بعض الإشارات التي أوردها الزيات، فيما يرتبط بعلاقة شاكر بعقبة بن نافع، حيث اعتبر الزيات أنه «كان من أصحاب القائد العربي الشهير عقبة بن نافع الفهري، وأنه مات هناك (في رباطه) ... وأنه تركه هنالك لتفقيه الناس في أمور الدين، وأن المكان الذي بني فيه الرباط هو الذي كان يعلم فيه الناس»[2]. وكذلك، قول الكانوني في السياق ذاته: «أن عقبة ابن نافع لما فتح المغرب... ترك به جماعة من أهل العلم يعلمون القرآن وشرائع الدين منهم شاكر وغيره، كما صرح بذلك البكري (ثم أضاف) وشاكر رباطه ببلد حمير حوز آسفي»[3]، مما يفسر فعلا، أن هذا الرباط، سيعتبر تهديدا حقيقيا للمشروعية السياسية التومرتية، خاصة بعدما تحول إلى طائفة لها مقوماتها التنظيمية، سواء على المستوى المعنوي في ربط علاقات مع أرباب الزوايا داخل المغرب وخارجه عن طريق ما عرف برابطة أو طائفة الحجاج، أو على المستوى المادي اثر التحالف مع القبائل الهسكورية التي صارت هذه الطائفة تمثل لها صمام الأمان في تنقل تجارتها عبر الطرق المغربية التي كانت تتميز في أواخر انهيار الدولة المرابطية وبداية تشكل الدولة الموحدية باللا أمن وانتشار ظاهرة قطاع الطرق، بالإضافة إلى الصراعات القبلية فيما بينها، وفيما بين نظام الحكم، حيث يستفاد من بعض الإشارات التاريخية، أنه «انطلاقا من سنة 620 هجرية، انجرف الجنوب كله ضمن مسلسل الدسائس والانقسامات التي أدت بالمامون الموحدي إلى التبرؤ من إمامة محمد بن تومرت ومجمل عقيدته سنة 626 هجرية، كما هو مشهور»[4]. وفي رأينا المتواضع، أن هذا التبرؤ، لم يكن عشوائيا، بقدر ما كان نتيجة تخطيط سياسي واستراتيجي أملته ضرورات العصر، يستخلص من مضمراته مدى التهديد الذي أصبحت تعيشه الدولة الموحدية بفعل القوة الروحية والرمزية التي أصبح يحتلها التصوف خلال هذه الفترة الموصوفة سنواتها عند بعض المؤرخين بسنوات الأزمة، نظرا لما عاشه المغرب من سنوات عجاف متتالية «ربما كان أشدها وقعا سنة 615 للهجرة التي سماها المصامدة لهذا السبب ولا شك بسنة وقليل»[5]. ومعلوم أن هذه السنوات سيكون لها الوقع النفسي والمعنوي على سكان المغرب الذين سيزيد ارتباطهم بأهل التصوف، لما يشكلونه من ترياق نفسي و»حصانة سيكولوجية»[6] ضد قساوة الحياة. لذلك سيشتد ارتباط أهل المنطقة بالتصوف وستتقعد الأسس التربوية الأولى للعلاقة بين الشيخ والمريد التي ستنصرف سماتها على العلاقات الاجتماعية، كعلاقات يغلب على روابطها الولاء المطلق للشيخ والتي ستمكنه «من تمرير مختلف أفكاره إلى مريديه، كانتقاده للحكام والدعوة إلى إقامة الجهاد»[7]. ونظرا لهذه الاعتبارات مجتمعة، نفهم لماذا كان ابن الزيات دائم الذكر لأهل دكالة بالتصوف والبركة والزهد، حسب ما يستخلص

---

2 ـ المرجع نفسه. ص 32

3 ـ المرجع نفسه. ص 33

4 ـ محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار تبقال للنشر، الرباط 1987. ص 23

5 ـ المرجع نفسه.ص22

6 ـ عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر {مسألة التجاوز}، ط2، المركز الثقافي العربي، 2012. ص 118

7 ـ المرجع نفسه.

من قول أحد أولياء الفترة، اسمه «أبو ويعزان يبريدن الايلاني القدار»[8]: «في المصامدة سبعة وعشرون وليا يخترقون الهواء، وفيهم أربع عشرة امرأة»[9]، ويخص فيهن بالذكر، عجوزا عمياء من بلد هسكورة، واسمها أم محمد السلامة، قائلا: «أخبرني مخبر قال: أخبرني أبو بكر الحويري خديم (تين السلامة، نسبة لأم السلامة)، قال: خدمت تين السلامة ثمانية أعوام، فكانت تبذر في كل يوم خمسة أمداد خاصة. فإذا حصدت رفعت خمس أمداد للبذر وأعدت الباقي لنفقتها ونفقة أضيافها مدة عام. قال أبو بكر: وقلت يوما لتين السلامة: خدمتك مدة، فما رأيت شيئا مما يراه الرجال: فقالت لي: تثوب إلى الله تعالى وعليك بالصوم، فصمت أياما. فلما كان ذات ليلة قالت لي: قم، فانظر كم بقي من الليل، فقمت لأنظر ما بقي من الليل، فرأيت شيئا يطير في الهواء كالغرنوق العظيم. فإذا به قد نزل على خيمتها، ثم دخل إليها، فإذا هو صهرها أبو سجمات فسمعته يقول لها: ما وجدت من ترينه من تلامذتك إلا أنا. فتحدث معها ساعة، ثم رأيته عاد من حيث جاء.

قال أبو بكر الحويري: وكنت مع تين السلامة وابنها محمد في زمان الحصاد إلى أن صاحت فسقطت. فسمعت ابنها محمدا يقول لها: ستكون الكرة لهم، ثم أفاقت من غشيانها وصرخت صرخة تصرخها النساء عند السرور بالشيء. فاجتمع الناس عليها وأنكروا عليها ذلك. فقالت لهم: كنت رأيت الروم قد حملوا على المسلمين حملة عظيمة. فعظم ذلك علي، ثم بعد ذلك كانت الكرة للمسلمين عليهم فهزموهم. فأرخ الناس ذلك اليوم فجاء الخبر من جزيرة الأندلس بأن المسلمين هزموا في ذلك اليوم «ادفونش» ملك الروم، وهي غزوة الأرك التي كانت يوم الأربعاء التاسع من شهر شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة»[10]. ويضاف إلى هذا العدد، عدد آخر من النساء قاربن الألف امرأة عند الترجمة لإحدى الوليات الصالحات (مينة بنت ميمون الدكالي) جاء فيها: «حضر بهذا الرباط (رباط شاكر) ألف امرأة من الأولياء»[11]. وبورود هذه الشهادة نتبين أن هذه المنطقة عرفت من الصلاح النسائي الكثير، وأن ضياع الأخبار عنهن يرجع بالأساس إلى العقلية الذكورية التي احتكرت القول في التاريخ، واقتصر جهدها في تخليد مناقب الذكور من الأولياء الصالحين في تغافل تام عن الأعداد النسائية الهائلة التي تمت الإشارة إليها في الترجمة السابقة، مما يجعلنا نستشف أن ذكر هذه النماذج النسائية وبهذا العدد غير الهين في رقعة جغرافية صغيرة بالمقارنة مع الخارطة الترابية للمغرب، يحيل ضمنيا، إلى أن ذكر المرأة مناقبيا يشير إلى الخصوصيات المجتمعية التي سبق وأوردناها بخصوص طبيعة المجتمع الصنهاجي، كإحالة على التركيبة الذهنية للمغاربة في التاريخ البعيد، حيث نجد أن هذا المجتمع مكن المرأة من أن تضطلع بأدوار طلائعية في الحياة المجتمعية، وهي مكانة ستناهض من طرف مؤرخي وفقهاء المرحلة الموحدية، بدعوى أن من أسباب انهيار الحكم المرابطي، هو تولية النساء لزمام الأمور، حسب ما يمكن أن نستخلصه مما ذكره المراكشي قادحا في المرابطين ورافعا من شأن الموحدين قائلا: «ظهرت في آخر زمانه (أي

8 - ابن الزيات، التشوف الى رجال التصوف ... مصدر سابق، ص 431

9 - المصدر نفسه، ص 316

10 - ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، مصدر سابق. ص 387 و388

11 - المصدر نفسه، ص 316

علي بن يوسف) مناكر كثيرة وفواحش شنيعة من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور. وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ ووزرا على ما تقدم»[12].

وفي مقابل هذا التوصيف، نجد أن ابن الزيات في تقديمه للمرأة في حقل الولاية والصلاح لا يخلو من ملاحظات حكمت ظرفية التأليف في هذه الفترة، كظرفية عرفت في العهد الموحدي بالغلبة الموحدية التي انتحلت المذهب التومرتي المناقض للمذهب المالكي الذي قدمه صاحب التشوف ـ كما يشير إلى ذلك محمد القبلي ـ وكأنه النحلة التي نهل منها مصامدة السهل، لما قدمهم في صورة الزهاد والعباد المختلفين عما دونهم من المتغلبين المصامدة الداعمين للمشروعية الموحدية. وفي رأينا، أن ذكر المرأة المصمودية في باب التصوف ليس إلا تأكيد على هذا البعد الضمني الذي أراد من خلاله ابن الزيات إظهار أصحاب الحق، كتصنيف اجتماعي جديد يبدو أنه ـ حسب محمد قبلي ـ «أصبح يعتمد النحلة بجانب العرق أو أكثر من العرق كما هو واضح»[13]؛ ومما يؤكد هذه النزعة والتوجه الذي يفضي إلى الإقرار بأن التصوف والزهد والورع هو الأصل في المصامدة، هو أن كل الترجمات التي ذكرت في التشوف سواء بالنسبة إلى الرجال أو النساء، كانت كلها تندرج في إطار «العقد الرابع من القرن السادس الهجري»، ولعل هذه الملاحظة هي ما دفعت بمحمد القبلي إلى أن يطرح سؤالا مهما، يقتضي أكثر من بحث تاريخي تعميقا له، والذي يرتبط بقوله: «فإذا صحت هذه القراءة الواردة شكلا ومضمونا من وجهة نظرنا، أفلا يمكن أن يكون القصد المتوخى أن الأصل في المصامدة هو الزهد والورع وصحة الإيمان، بعكس ما يمكن أن يكون قد التصق باسمهم واسم عصبيتهم كلها من شوائب لم تدن بها إلا القبائل المتغلبة وفئة الحكام؟»[14]. وما يزيد تأكيدا على ذلك هو دفاع أحد المتصوفة المسمى بـ «أبو وزاغار» عن هؤلاء القوم عندما سمع من بعض مريدي المصامدة صوتا مرفوعا عند دعائهم وهو جالس مع جملة من أصحابه برباط شاكر، حيث قال ـ حسب ما ذكره محمد القبلي ـ ما معناه بلغته ولغتهم: «ينبغي أن لا ينكر عليهم لأنهم أهل نيات وجد وصدق»[15]. وفي هذا القول ـ في رأينا ـ دفاع صريح على القوم وتأكيد على عقيدتهم المعارضة لعقيدة نظام الحكم المتغلب الذي حاول طمس معالم هذه العقيدة المهددة، بتوسل استراتيجية التهجير المتعمد للقبائل العربية إلى المنطقة، قصد احتواء العناصر المصمودية المرتبطة وجدانيا وعقديا بأهل التصوف والزهد، والتقليل، بالتالي من تهديدها العقدي المتزايد، خاصة بعد التنكيل الذي عرفته مراكش من طرف الموحدين الذي دفع بقبائل السهل «بلاد رجراجة وحاحة ودكالة ومجموع القبائل البرغواطية المستقرة آنئذ بتامسنا»[16] إلى إبراز رد فعل اتجاه المتغلب، عن طريق التمرد ورفض المساكنة معه وإعلان الحرب التي

12 ـ مراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006.ص 140

13 ـ محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال ... مرجع سابق. ص 28

14 ـ المرجع نفسه. ص 29

15 ـ المرجع نفسه. ص 34

16 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

«أدت إلى هزائم متتالية لبعض البعثات العسكرية الأولى»[17]، فما كان من الحاكم المتغلب إلا أن جمع العدة وعاث قتلا في بلاد دكالة التي «رأت ما لم تقدر عليه...»[18]، فـ «ألجأهم السيف إلى البحر فقتل أكثرهم في الماء وأخذت إبلهم وغنمهم وأموالهم وسبي أولادهم وانتهى البيع فيهم إلى بيع المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم»[19]. أما رجراجة، فلقد «بدد شملهم ووحدوا، كما وحد برغواطة على إثرهم بعد أن كانت بين الخليفة الموحدي وبينهم حرب عظيمة هزم فيها عبد المومن ـ حسب رواية أبي زرع ـ ولم يلبث نفس الخليفة أن استرد نفسه فيما يبدو، فكانت الكرة على البرغواطيين، فأجال فيهم السيف ولم يبق منهم إلا من لم يبلغ الحلم»[20].

وعلى الرغم من تغلب الدولة الموحدية على القبائل المناوئة، إلا أن هذه الأحداث ستؤدي إلى استنزاف الدولة عسكريا وسياسيا وماديا ومعنويا، حيث بدأت قوة الدولة تتآكل من الداخل، كما عبرت عن ذلك هزيمة «العقاب» وما لحقها من مجاعات وأزمات وقلاقل تستشف من توصيف لابن أبي زرع قال فيه: «ضعفت دولة الموحدين وظهر فيها النقص ... وكثرت الفتن بين القبائل واشتد الخوف في الطرقات والمشاهد ونبذ أكثر الناس الطاعة وفارقوا الجماعة وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة، فاستوى الدنى والشريف وأكل القوي الضعيف. وكان من قدر على شيء صنعه ومن أراد شرا ابتدعه ليس لهم سلطان يكفهم ولا أمير يردهم، وكانت قبائل فازان ... وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات ويغيرون على القرى والمداشر مع الأحيان والأوقات»[21]، ونظرا لهذا الوضع المأزوم، سيبحث الناس عن عوض يعلقون عليه آمالهم ويحتمون به من غدر الزمان، فتقوت بذلك شوكة التصوف الذي سيقدم أربابه أنفسهم كبديل؛ مما يفسر أن كتابة التشوف في ظل هذه الأحداث لم يكن الغرض منه الترويج لخطاب وعظي وإرشادي، يقوم على التعريف بكرامات أصحابه، بقدر ما أنه حمل بين مضمراته التشهير بقضايا العصر التي أدت أحداثها إلى مولد خطاب ديني ذي مقومات مرجعية تختلف عن المرجعيات التي قامت عليها الأيديولوجيا الدينية الموحدية، وما يظهر ذلك أكثر هي الصورة التي قدم بها الشيخ المتصوف والمرأة المتصوفة، كنماذج للبساطة والتسامح والجامع والجامعة لشتات المتخاصمين والحريص والحريصة على الوحدة والتجمع في إطار الانتماء للجماعة، كما دلت على ذلك وقائع تأسيس الطوائف والدعوة إلى الحج برا، وما كان لها من وقع نفسي على تزايد المريدين والأتباع، بالإضافة إلى الحرص على تعليم أدبيات مجاهدة النفس ومحاسبتها والتقليل من دوغمائيتها في مقابل لغة الميز والتحيز والتعصب والتراتب الطبقي والإثني التي ميزت الحكم النقيض. لذلك، سيجتمع الناس حول الولي الصالح والولية الصالحة، لما مثلنه من خصال دينية وأدوار اجتماعية كان الناس في أمس الحاجة إليها بعدما فقدوا الثقة في أسباب الاجتماع حول نظام حكم قهرهم وعاث فيهم فسادا.

17 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

18 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

19 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

20 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

21 ـ ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار منصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط 1973.ص192

ويضاف إلى هذه القراءة السريعة للأحداث التي انتهينا من خلالها، إلى أن ذكر النساء في باب الصلاح إسوة بالرجال، كان نتيجة الطبيعة المذهبية التي حكمت نحلة القوم [22]، قضية أخرى غاية في الأهمية، ويمكن أن تفيدنا كثيرا في وضع بعض الإشارات عن سبب ظهور الوليات الصالحات في هذا القطر الجغرافي من خريطة المغرب، ونقصد هنا، إحدى الملاحظات التي انتهى إليها محمد القبلي، بخصوص عودة محمد صالح إلى المغرب بعد عودته من رحلته المشرقية التي تزامنت مع خروج محيي الدين ابن عربي في رحلته إلى المشرق. وبغض النظر عن الاختلاف الذي يمكن أن يتأتى عن قراءة كلا الخروجين، فإن ما يهمنا، هو ذكر المرأة، كقطب للتصوف خلال هذه الفترة التي عاش فيها الشيخان، حيث نجد من النساء من انتسب صلاحهن للبيت الماجري(نسبة إلى محمد الصالح وكنيته الماجري)، كلالة صفية وولالة رزيكة ولالة شتية وغيرهن من النساء الصالحات اللائي سنأتي على التفصيل بخصوصهن، ومن النساء من ارتبطت شهرتهن في قطب التصوف والولاية والصلاح بذكر ابن عربي، كشيخته «فاطمة بنت المثنى» ملهمته في علم الباطن، وهي امرأة ربما كانت سببا في تأليف شيخ الأندلس عن المرأة التي سيجعل منها المرآة التي تتجلى فيها الحضرة الربانية، متجاوزا، كل الحدود الفقهية التي لم تر في المرأة سوى كائن ناقص، حسب ما يمكن أن يستفاد من بعض الاجتهادات الفقهية المشرقية التي نرى أنها تأثرت في خلاصاتها بطبيعة الحياة الاجتماعية وبمحيطها الجغرافي في الانتصار للذكورة ضدا على الأنوثة التي عدت عند الشيخ الأكبري متساوية مع الذكورة في المسؤوليات الخلقية والوجودية مصداقا لقوله تعالى «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**» (النساء، الآية 1).

في هذا السياق العام، تأتي قراءتنا لظهور الصلاح النسائي في آسفي، كرقعة جغرافية كثرت حولها أوصاف الورع والزهد والتقوى، ونشدت عن أهلها الصالحين قصائد وأشعار تنتهي كلها عند التعريف بارتفاع شأن رباطاتها التي عدت في المغرب، بمثابة اللبنة الأساسية في التقعيد للمشروعيات السياسية التي ستأتي بعد انهيار الحكم الموحدي، وكذلك بروز التيارات الصوفية في كل ربوع المغرب كالطريقة الشاذلية والجزولية، والتي ستحتل فيها المرأة مكانة معتبرة بفعل تأثيرات مرجعية الهوية المغربية المتميزة تاريخيا في النظر للمرأة على أساس التساوي المطلق مع الرجل، حيث ستتمكن المرأة من الاضطلاع بأدوار وازنة على مستوى تعليم ونشر مبادئ الدين الإسلامي وإنشاء مدارس وتكوين أتباع.

ونظرا لذلك، نرى أن آسفي كمنطقة للصلاح والتصوف، لم تحد عن هذه القاعدة العامة التي حكمت التمثلات الاجتماعية اتجاه الولية الصالحة في الذهنية المغربية التي نستقي إحدى أهم سماتها من بعض

22 - وهي المذهب المالكي، الذي سبق التعريف به من خلال إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، عندما دخل إلى المغرب، وتم دمجه في إطار المقوم الديني لأهل المنطقة الذين سبق لمشايخهم زيارة المشرق والنهل من التصوف الذي قعد لأسسه كتاب إحياء علوم الذين، مما يفسر أن جوهر التصوف المغربي ارتبط بالتعاليم التي نشرها كتاب إحياء علوم الدين. وبالتالي، نفهم أن مشروع التادلي، لم يكن هدفه إعادة بلورة أسس التصوف والدفاع عنها، بقدرما، كان الغرض من تأليفه لكتاب التشوف، هو التشهير بأهله، وبمكانتهم الوازنة في المجتمع الذي لم يكن يميز فيه بين امرأة ورجل.

المرويات الشعرية التي توسلت صلاح وبركة المرأة في الشفاء، كما هو مثال ما ذكر بخصوص توسل الشاعر الطيبي البقال بوليات آسفي متمنيا منهم الشفاء ورفع الضرر، حيث نشد في قصيدته قائلا:

«للا عـــيشا مـــن أتـبعـــتـــــــك أم الكنبـــــش نخبـــت الفضـــال
والحـرة للاصفيـــة زهـــرة كل بطايـــح أســـيدي الغـــاز أشجيـــع لكفـاح
سيدي المخفي أمع البتـول أضيا الملامـح زينـب واصفـــيا أبـدور لفـــلاح
سيدي عبد الكريم يكرم فالوقت القاصح للالـــة الغنيـــميا أعـلاج الجـــراح»[23]

وعلى أساس هذه الاعتبارات، يمكن أن نميز في زمن ظهور الوليات الصالحات في آسفي مناقبيا، ومن خلال معطيات الرواية الشفوية، بين فترتين: فترة العهد الوسيط والفترة الحديثة، مع الإشارة إلى ولية صالحة ارتبط تواجد اسمها في المنطقة بالفترة السابقة على دخول الإسلام.

1ـ الفترة الوسيطية:

نجد بخصوص هذه الفترة أن ذكر الوليات الصالحات، كلهن ارتبط بزمن الشيخ محمد صالح، حيث أمدتنا الرواية الشفوية وبعض الإشارات المصدرية أن كل الوليات اللائي أتى ذكرهن في فترة عيش الشيخ محمد صالح، كن معاشرات له إما بالخدمة أو البنوة، وتأثرن بمبادئه الدينية وسهرن على تكريس بعض العادات الدينية التي دأب البيت الماجري على القيام بها، كما سنعرض لذلك، مع ملاحظة أساسية أن بعض الوليات التي أتى كتاب التشوف على ذكرهن خلال هذه الفترة لم يبق لها أثر في الذاكرة الجماعية، وسبب ذلك في رأينا يعود إلى طول الفترة التاريخية من جهة، وأن ذكرهن لم يكن بالخدمة لآل محمد صالح من جهة أخرى، لذلك ضاعت أخبارهن، نتيجة أن الترجمات للوليات الصالحات غالبا ما تستقى في ضوء الترجمة لولي صالح، حيث يكون التعريف به دائما مقرونا بذكر تلامذته ومعلميه وخدامه، والمرأة في منطقة أسفي، ـ وحسب ما يستفاد مما تحصلنا عليه من معلومات ـ كانت في الغالب من خدام الشيخ محمد صالح وأخذت عنه صلاحه وبركته أو نهلت عن غيره من الأولياء الرجال.

فبالنسبة إلى الوليات اللائي ترجم لهن الزيات دون أن تبقى لهن ذكرى في المنطقة بفعل تقادم الزمان، نذكر:

- **<u>الولية الصالحة السيدة سليمة، أو أم السلامة</u>:** جاء ذكرها عند التادلي بالقول: «كبيرة الشأن من الأفراد» ولها كرامات. وقد ذكر بخصوصها الكانوني نفس الترجمة التي أتى ذكرها عند التادلي، حيث يقول عنها: «إنها

23 ـ أحمد الوارث، التيار الصوفي... مرجع سابق. ص 497

تنبأت بهزيمة المسلمين على يد الروم وبانتصارهم عليهم في معركة الأرك»[24]. والملاحظ أثناء إنجاز الدراسة الميدانية أن هذه الولية لم تعد تذكر، وصارت نسيا منسيا على مستوى الذاكرة الجماعية، ولكن الملاحظة التي يمكن أن نسجلها بخصوص ما ورد من ذكر عن هذه الولية أنها كانت ترى الغيب، وهي كرامة لا تتأتى في مجال الولاية إلا إلى الأقطاب من المشايخ، حيث نجد في ذكر بعض الأولياء الصالحين من تنبأ بمصير عروش الحكم وصدقت تنبؤاتهم وتحققت، الأمر الذي يفيد مدى المكانة الروحية التي وصلت إليها بعض النساء في حقل الولاية والصلاح إلى درجة التنافس مع الرجال من الأولياء في مجال الكرامة التي نرى أن تحققها عند بعض النساء جعلهن يحتلن مكانة وازنة في الذاكرة الاجتماعية بالمقارنة مع الأولياء الصالحين. هذا بالإضافة إلى القدرة على التأثير من خلال الكرامات على توجيه الأحداث؛ لأن التنبؤ بمثل هذه القضايا الكبرى لمصير المجتمع يمكن من تجييش المشاعر ويمنح المجموعات البشرية الدعم المعنوي والنفسي والقدرة على المواجهة، خاصة وأن الولي ـ على مستوى التمثلات الاجتماعية ـ يظهر باعتباره القوة الروحية التي ينتظم من خلالها الوجود الاجتماعي الذي لا تتعاضد روابطه إلا في ظل الكرامات التي يمنحها الولي، كما يمكن أن يستفاد من النتائج المهمة التي توصل إليها إكلمان بخصوص دراسته «الإسلام في المغرب»، حيث انتهى إلى «أن أولئك الذين يعتقدون في الأولياء وشفاعتهم، يرون أنه بالإمكان الارتباط بالأولياء، إذ يرى هؤلاء أن إقامة مثل تلك الروابط والحفاظ عليها يعد أمرا حيويا بالنسبة إليهم. فالارتباط كما هو في الوقت الراهن، يعطي للفرد امتيازا خاصا في هذه الدنيا، التي لا يمكن أن يحدث فيها شيء من تلقاء نفسه»[25]؛ لأنه من صنع الإرادة الإلهية، وبالتالي فربط علاقة مع الولي عن طريق الزيارة وتقديم الهدايا هو الكفيل بضمان الحصول على بركة الولي التي ينظر إليها على مستوى التمثلات الاجتماعية بـ «الخبيزة» التي تعني الخير الكثير الذي يمكن للفرد تحصله من خلال إرضاء الولي الصالح بتقديم الهدايا المتنوعة، ذلك أن المؤمن ببركة الولي، كلما نال البركة، كلما تمكن من تغيير القضاء والقدر الإلهي وسخرت حوائجه ومطالبه الدنيوية وسارت في الاتجاه الذي يرضاه لنفسه. ولعل ما يفسر ذلك الدعاء الدارج على لسان بعض الأفراد الذين يقولون «ربنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه»؛ مما يعني أن القضاء والقدر يمكن أن يتغير عن طريق القيام بالأفعال الحسنة، كالصدقة التي يدخل في إطارها زيارة الأولياء الصالحين، خاصة وأن المأثور الديني يقر بكون الصدقة تدفع البلاء. لذلك نرى أن تنبؤ الولية بربح معكرة الأرك[26] ربما يرجع ضمنيا إلى رغبتها في النصر، وما دام دعاء الولي مستجابا، فهي بتنبئها تكون قد منحت القوة المعنوية للأهل من أجل تحقيق النصر، وبالتالي، تجاوز كل الحساسيات السياسية التي كان يثيرها التضييق على رجالات ونساء الصلاح من طرف نظام الحكم. ونحن نرى إمكانية صواب هذه القراءة، بالعودة إلى السياق العام الذي ألف فيه كتاب التشوف، كسياق تميز بالمواجهة الضمنية بين أهل الصلاح وبين أصحاب الغلبة السياسية التي انتهت إلى الاضمحلال بسبب تآكل أيديولوجيتها في القدرة على تجييش وجدان

24 ـ الكانوني، أسفي وما إليه... مصدر سابق. ص 245

25 ـ ديل إكلمان، الإسلام في المغرب، ترجمة محمد أعفيف، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، 2015. ص 256

26 ـ معركة الأرك وقعت في 18 يوليوز 1195 م الموافق ل 591 ه بين الجيش الموحدي بقيادة السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور وقوات ملك قشتالة ألفونسو الثامن، وقد كان من نتائج هذه المعركة توطيد معالم الحكم الموحدي، نظرا للوقع النفسي الذي كان لها على المسلمين.

المجتمع ضد العدو، هذا بالإضافة إلى أن أقطاب الزوايا والرباطات سيكون لهم الدور الحاسم في تمكين المجتمع من مواجهة التهديدات الإيبيرية وتحصيل استقلال مجموعة من المناطق المغربية، كما هو الحال في المنطقة المدروسة التي عانت من ويلات الاحتلال البرتغالي، بعدما ضعف نظام الحكم في الداخل المغربي.

ـ **شابة مجهولة:** روى عنها الزيات قوله: «سمعت بن عبد الخالق يقول: سمعت غير واحد من أصحاب الفقيه يغمور بن خالد: جاءني أبو مهدي، فقال لي: اذهب معي إلى زيارة شابة هسكورية لم تبلغ الحلم وهي من الأولياء. فذهبنا إلى كهف بجبل درن. فوجدناها قد انقطعت عن الناس، فخاضت معي في علوم لا أعرفها، وكانت مريضة فانصرفنا عنها، ثم مررنا يوما آخر لنزورها، فلما قربنا من الكهف الذي كانت فيه، قال لي أبو مهدي: إن تلك الشابة في النزع. فرأيت نورا يسطع من الكهف الذي كانت فيه. فدخلنا عليها فوجدناها تجود بنفسها، ثم قالت لأبي مهدي: إذا أنا مت فاسترني بهذا الثوب الخلق الذي علي واذهب إلى أبوي بموضع كذا واقرأ عليهما السلام وأعلمهما بالحال، ففعلنا ما أمرتنا به، ولما خرجنا من الكهف، رأيناها تحمل في الهواء، ثم سألنا عن اسم أبويها وأتيناهما، فلما دخلنا عليهما قالت لنا أمها: أظنكما قريبي العهد بابنتي! فأعلمناها بوفاتها وعزيناها وانصرفنا»[27].

والناظر إلى هذه الترجمة يستفيد، أشياء مهمة، منها مثلا القبول بمجادلة المرأة والخلوة بها، وهي أشياء نرى أنها من الطابوهات في المجتمعات المشرقية والإسلامية بصفة عامة، إلى درجة أن بعض الاجتهادات الفقهية من تعتبر أن صوت المرأة عورة فما بلك بمجادلتها للرجال، ومن هذه الاجتهادات مثلا ما ورد عند ابن تيمية، حيث نجده يستشهد بمجموعة من الأحاديث النبوية التي تعتبر أن صوت المرأة عورة، من قبيل ما جاء في إحدى الروايات «وبلغني عن امرأة من القدماء، أنه كان إذا طرق عليها الباب وليس عندها أحد وضعت يدها على فمها وتكلمت، ليخرج كلاما منزعجا لا يفتن»[28]. وهذه رواية تتعارض تماما مع ما ذكر بخصوص مريم (عليها السلام) وأم موسى وفاطمة الزهراء اللواتي كلمهن الله تعالى، ثم المرأة التي أتت عند رسول الله (ص) عليه وسلم تشتكي زوجها قائلة: «يا رسول الله إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب في، فلما خلا مني ونثرت بطني، جعلني عليه كأمه وتركني إلى غير أحد. فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني بها وإياه، فحدثني بها. فقال عليه السلام: «ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن، وما أراك إلا قد حرمت عليه»، فقالت: ما ذكر طلاق يا رسول الله؟، وأخذت تجادله عليه السلام وتكرر عليه القول إلى أن قالت: إن لي صبية صغارا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وما برحت حتى نزلت الآيات الأربع «**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**» (المجادلة، الآية1)[29]. والناظر إلى هذا القول

27 ـ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف ... مصدر سابق. ص 266

28 ـ أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد المعروف بـ «ابن الجوزي»، تحقيق ودراسة عمر وعبد المنعم سليم. مكتبة إبن تيمية، القاهرة، ط 1، 1997. ص 103

29 ـ ورد عند إبن تيمية في فتاوي النساء، ط1، دار الكتب العلمية، ، لبنان، 2003، ص ص 29.28

الإلهي يستشف أن خطاب الله تعالى لهذه المرأة لم يكن خطابا فرديا موجها لها، بقدر ما هو خطاب جمع بينها وبين الرسول (ص) في الجدال، مما يدلل على المكانة الكبيرة التي اختصها الله للجدال كمنهج للدفاع عن الحق وتبيانه حتى يتمكن صاحبه من إظهاره وحوزته. ولعله ما وقع فعلا في حادثة هذه المرأة التي نصرها الله وأخذ بصواب وسداد رأيها وجعل من قصتها تشريعا إسلاميا للظهار وأحكامه، حيث صارت سورة المجادلة والحالة هاته بمثابة الأثر المادي للفكر النسائي في المنظومة الإسلامية؛ وذلك من منطلق أن المرأة ليست وعاء للمتعة أو زهرة تنتهي مدة صلاحيتها بفتور رائحتها، وإنما هي كيان له رأي يسمع. وهو ما نرى أنه تحقق فعلا للمرأة في حقل الولاية والصلاح، إذ نجد نماذج نسائية كثيرة دخلت في جدال مع مشايخ التصوف، ولم يكن ذلك ليثير حفيظة القوم، نظرا لكون الصور والتمثلات التي تحمل على المرأة في حقل الولاية والصلاح لا تكون نفسها فيما يتعلق بصورة المرأة في الحياة المجتمعية العادية؛ الأمر الذي يفسر لنا أن المرأة الولية الصالحة، قد استطاعت فعلا من خلال باب الولاية والصلاح تحقيق مساواتها مع الذكورة، خاصة وأن الزيارة للولية الصالحة لا تكون مسبوقة بأحكام مسبقة عن دونية المرأة، إذ لا نكاد نعثر على هذا المعطى على مستوى الرواية الشفهية؛ لأن النظر إلى الولي والولية غالبا ما يكون مقرونا بالبركة التي يمكن توسلها وتحقيق النفع منها دون أدنى تخمين في الفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى.

ـ منية بنت ميمون الدكالي: «أصلها من مكناس ونزلت في الجانب الشرقي من مراكش وبه توفيت عام خمسمئة»[30]. وما يهمنا في هذه الولية الصالحة أنها كانت من زوار رباط شاكر، حيث يقول ابن الزيات: «.... مشيت إلى رباط شاكر فوجدت فيه منية، فقالت لي: ما رأيت هذا المكان من قبل هذه المرة ولقد تمنيتك فيه، ثم حدثتني إلى أن قالت لي في حديثها: قيل لي: يتفق لك شيء. أنا أظنه أنه الموت. فقلت لها: لعله غير ذلك. فلما عادت إلى مراكش مرضت مرضها الذي ماتت فيه»[31].

وفي رواية أخرى، يقول ابن الزيات: «... رأيت منية في رباط شاكر. فصليت بها في جماعة من المريدين وانصرفت عنهم، فاخبرني بعض من تحدث معها من المريدين أنها قالت: حضر هذا العام بهذا الرباط ألف امرأة من الأولياء»[32]. وقد ذكر بخصوصها هي الأخرى مشاهدة النور يخرج من بيتها وقبرها.

ويلاحظ من خلال الترجمة لهذه الولية الصالحة الحضور الهائل للنساء إلى رباط شاكر خلال القرن السادس الهجري؛ إذ ذكر ألف امرأة بالمقارنة مع التعداد السكاني الذي نرى أنه لن يكون بالعدد الكبير خلال تلك الفترة، الأمر الذي يعطينا فكرة عن الحضور الوازن للمرأة في باب الصلاح، وفي نفس الوقت التسامح الكبير للمجتمع بالنسبة لخروج المرأة وأدائها الزيارة التي تفيد محمولاتها التعلق الكبير للسهل الدكالي بأهل الصلاح، كما تفيد بأن المجتمع المغربي بالمقارنة مع المجتمعات المشرقية، كانت تحضر فيه المرأة متساوية مع

30 ـ ابن الزيات، التشوف... مصدر سابق. ص 316

31 ـ المصدر نفسه. ص 316

32 ـ المصدر نفسه. ص 316

الرجل، عندما يتعلق الأمر بالقضايا الكبرى التي تهم المجتمع، كما هو مثال تعلق النساء بأهل الصلاح، مع العلم أنهم كانوا مرفوضين من طرف السلطة الحاكمة التي كانت متوجسة من تنظيمهم ومن ارتباط الناس بهم وتزايد عدد مريديهم.

ـ **امرأة مجهولة:** ذكر حولها أنها أتت من مراكش في زيارة لرباط شاكر، وقد «لصق جلدها بعظمها»[33] من شدة التعبد.

أما بخصوص الوليات اللائي ذكرتهن المصادر في ارتباط مع ذكر الشيخ محمد صالح وبقي لهن حضور في الذاكرة الاجتماعية حسب الترتيب الزمني، نذكر:

- **لالة ازريقة:** وهناك من يسميها «لالة ارزيكة»، تفيد الرواية الشفوية بعد زيارتنا لمقام السيد محمد صالح أن لالة ارزيكة أو ازريقة كانت من خدام السيد محمد صالح. يوجد ضريحها بالقرب من ضريح سيدي محمد صالح وبالضبط في درب الشيخ، ويقال إنها كانت من الصالحات المتعبدات، وقد تحول ضريحها إلى حدود الزيارة الميدانية إلى دار للقرآن.

- **لالة شتية:** يقال إنها كانت من أتباع الشيخ محمد صالح. يوجد ضريحها بالقرب من المقبرة اليهودية المعروفة بـ «ولاد بن جميرو». وقد عرفت بصلاحها وورعها الذي جعل منها قطبا للزيارة والتبرك وتوسل دعائها لله من أجل إنزال المطر كلما تأخر سقوطه، لذلك سميت بلالة شتية نسبة إلى بركتها في طلب الاستسقاء، ولكن ضريحها لحقه الإهمال إلى أن تهدم كاملا، ولم تبق منه سوى معالم قبرها.

إن استجداء أهل آسفي بهذه الولية لإنزال المطر، نجد له بعض الإشارات التاريخية التي أوردها كتاب التشوف بخصوص المعاناة التي كان يلاقيها السكان إثر توالي سنوات الجفاف التي كانت تضر بعيشهم وتقض مضجع راحتهم، كما هو مثال ما يمكن أن يستفاد من خلال ذكر ابن الزيات في ترجمة تنسب إلى الولي الصالح أبي وكيل «ميمون بن تاميمونت»، حيث قال: «حدثني غير واحد: أن المطر احتبس في وقت نزوله وقلت المياه، فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه، فأمر أبو وكيل قومه أن يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر، فقالت زوجته: ما هذا الذي تفعله؟ أتريد أن يتم الماء فترحل كما رحل الناس؟ فأعرض عن قولها، فلما نفذ ماؤها أتت إليه، فقالت له: انظر في الرحيل فقد نفذ ماؤنا»[34]. وهذه رواية تنم عن العسر الذي كان يلاقيه سكان السهل الدكالي إثر احتباس المطر؛ إذ كانت الحاجة تدفع مجموعات بشرية مهمة إلى الرحيل بحثا عن الماء الذي ارتبط وجوده بالاستقرار السكاني في المنطقة، ونظرا لهذه الحاجة الملحة، فلم يكن للسكان من بد سوى توسل بركة الأولياء الصالحين، الذين شكل تواجدهم في المنطقة الدعم النفسي الذي كان

33 ـ ابن الزيات، التشوف.. 386

34 ـ المصدر نفسه، ص 234، 235

يمد الناس بالصبر على المحن، خاصة وأن ابن الزيات يضيف على الرواية السابقة، قوله: (عن الشيخ بعد أن اشتد عليه الحال ولم يجد من حل سوى الرحيل هو الآخر) «... جاء إلى خيمته لينفضها ويرحل، فأمسك حبلا منها ورمق بطرفه السماء، وقال: أغثني يا رب يا مغيث»[35]، وهي دعوة تعبر عن الفاقة والحاجة الكبيرة التي يمكن أن نستشفها من الوصف الذي أعطاه ابن الزيات للولي الصالح، وهو يستجدي ربه من خلال النظر إلى السماء بطرف عين، وكأن الولي ضاق ذرعا بحاجته، فما كان من الله إلا أن استجاب لدعوته، كما يستنتج من قول ابن الزيات: «فنشأت سحابة صغيرة وهمهم الرعد، وتدلى السحاب، وهطل المطر، فروي الناس، وامتلأت صهاريجهم، فرجع الناس إلى بلادهم»[36]. هذا، ونضيف أن حاجة الناس إلى الماء، كانت تدفع بهم إلى زيارة الأولياء الصالحين، الذين يعقدون على بركتهم آمالا كبيرة في التوسط إلى الله من أجل الاستسقاء، حسب ما تمدنا به إحدى الروايات التي أوردها «أرمان أنطونا» بخصوص توجه أهل عبدة إلى ضريح الشيخ محمد صالح طالبين الغيث من الله تعالى، «ودعوه متوسلين به إلى ربهم، فإذا بالماء ينبع من جدران الضريح. وساعة بعد ذلك، هبت عاصفة حاملة الأمطار التي طالما اشتدت إليها الحاجة»[37].

وعليه، نستنتج أن تسمية لالة شتية، بهذا الاسم هو نوع من الإحالة الرمزية لهذه الولية الصالحة التي اقترن اسمها في الذاكرة الاجتماعية لأهل المنطقة بتوسط بركتها في طلب الله من أجل الاستسقاء، وما دام ذكرها اقترن بالشيخ محمد صالح الذي كان قطبا لأهل الصلاح يتوسل الناس بركته في طلب الغيث، فإنها أخذت بركتها من هذا الولي الصالح، كما أخذت عنه نساء أخريات جاء ذكرهن كخادمات للشيخ.

- **لالة عائشة ولالة مريم:** يروي أحد الأشخاص المسنين الساهرين على خدمة ضريح الشيخ محمد صالح وبعض سكان المنطقة، أنهما من مريدي الشيخ محمد صالح وعاشتا في نفس الفترة التي عاشت فيها كل من لالة صفية ولالة شتية ولالة زريكة، إلا أنهما توفيتا وهما طفلتان، فدفنتا بالقرب من جبل يطل على البحر والمعروف اليوم بـ «الكرنيش»، وقد كان يدفن بجانب مرقدهما الأموات من الصبية والأطفال، لكن قبرهما والمقبرة التي كانت بجوارهما لم تعد لهما قائمة اليوم بفعل انجراف التربة وتآكل الجبل بفعل الارتطام بأمواج البحر.

وتحكي الرواية الشفوية لأهل المنطقة أن دفن الأطفال بجوار ضريحهما الذي كان قائما إلى حدود الفترة الراهنة، كان سببه استجداء الناس لبركتهما في منح الأطفال مرقدا هنيئا، كما أن زيارة الأهل لأطفالهما الأموات في المقبرة، غالبا ما كانت ترفق بزيارة ضريح الشيخ محمد صالح المتواجد بجوار ضريح الوليتين الصالحتين، إذ لم يكن يبعد عنهما سوى بأمتار قليلة، ثم زيارة الوليتين الصالحتين وطلب الرحمة لأطفالهم، وتوسل الوليتين الصالحتين في أن يكون ظل أطفالهم رفيقا لهم في الجنة ومانحا لهم مغفرة الله من ذنوب الدنيا؛ لأن الصبية

35 - المصدر نفسه، ص 235

36 - ابن الزيات، التشوف...مصدر سابق. ص 235

37 - أرمان أنطونا، جهة عبدة ... مرجع سابق. ص 88

حسب ما يستفاد من الرواية الشفوية يمنحهم الله مقاما خاصا عنده ويكونون ظلا لدويهم يوم لا ظل إلا ظله الذي يغفر من خلاله لمن يشاء.

- **لالة صفية:** عاشت في القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي، قيل إنها كانت من مريدي الشيخ محمد صالح، يوجد ضريحها «بحومة الصومعة»، بالمدينة العتيقة من آسفي. وقد لحق مرقدها إهمال كبير؛ فقد اشتهرت لالة صفية بمعالجة مرض العيون المسمى في النطق المحلي ب «الضبابة والغمامة»، حيث ما كان على المريض سوى التبرك بترابها، كما عرفت كذلك بإشفاء الأطفال الذين يعانون من كثرة البكاء، حيث كان يترك الطفل في الضريح بعد إغلاق الباب عليه إلى أن يسكت ويشفى، هذا بالإضافة إلى شهرتها بعلاج بعض الأمراض الجلدية.

والملاحظ خلال هذه الفترة التي عاشت فيها هذه الولية الصالحة اشتهار الكثير من الأولياء الصالحين بمداواة الأمراض، واختص كل واحد منهم بعلاج مرض من الأمراض، إلا أن الملاحظة الأساسية التي استقيناه من المصادر التاريخية التي ذكرت ترجمات لبعض الأولياء الذين عاشوا في المنطقة خلال نفس المرحلة التاريخية اشتراكهم في إشفاء الأمراض الجلدية ورمد العيون، كما تذكر ذلك بعض المصادر التاريخية أن الشيخ محمد صالح كان يختص بمعالجة «رمد العيون»[38] الذي نرى أن ذكر الولية لالة صفية بمعالجته يرجع إلى أنها أخذت بركتها فيه من شيخها. ويروى على مستوى الرواية الشفوية أن الزائر إذا ما أراد رفع علته، ما عليه سوى توسل بركة الولية بالدعاء إلى الله وحمل قليل من التربة بين يديه من ضريح الولية وتمريره على عينه، فما يكون إلا العلاج بإذن الله تعالى. ويشترط في طلب العلاج إخلاص النية والتوجه إلى ضريح الولية بقلب سليم دون أدنى شك في بركتها. وتروي الرواية الشفوية أن هذه العادة لا زالت إلى اليوم بالنسبة إلى بعض الفئات النسائية المعتقدة في بركة الولية الصالحة، بالرغم من الإهمال الذي لحق قبرها، بل تحكي إحدى السيدات من أهل المنطقة أنها ذات يوم مرضت بالمرض المذكور، فذهبت وأخذت من تربة القبر مخلصة نيتها في بركة الولية الصالحة، فما كان سوى شفاؤها بإذن الله.

2 ـ الفترة الحديثة:

تميزت هذه المرحلة تاريخيا على مستوى المنطقة المدروسة بتكالب الاستعمار البرتغالي على المنطقة، والذي كان من نتائجه الاستغلال المفرط للخيرات والقتل والتقتيل وتخريب المعالم الدينية التي ترتب عنها ظهور مقاومة عنيفة لعب فيها الأشراف أدوارا مهمة انتهت باستقلال آسفي وأزمور.

وفي ظل هذا الوضع المأزوم الذي رافق دخول البرتغاليين إلى آسفي، ازداد ارتباط الناس بالأولياء الصالحين الذين شكلوا بالنسبة إلى الناس العاديين الدرع الواقي والحصانة السيكولوجية التي استعانوا بها في مجابهة

38 ـ انظر أحمد بن إبراهيم الماجري: المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق عبد السلام السعيدي، ج1، منشورات وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2013

قساوة الحياة اليومية. وقد لعبت في ذلك الوليات الصالحات من خلال كراماتهن نفس الوقاية السيكولوجية التي لعبها الولي الصالح، كما يمكن أن يستفاد من ذكر لبعض الوليات الصالحات اللائي ارتبط ذكر كراماتهن بهذه الفترة التاريخية.

وفي ذلك، نذكر:

- **لالة ملوكة**: يوجد ضريحها بالجهة المقابلة لضريح الولية الصالحة للالة فاطمة محمد، وهو يبعد عن مدينة آسفي بعشر كيلومترات؛ إذ بمجرد الوصول إلى المقطع الطرقي الذي يقود إلى شاطئ لالة فاطنة، يمكن الانعراج يسارا وقطع مسافة كيلومترين حتى الوصول إلى ضريح لالة فاطنة، ثم الانعراج يسارا وقطع مسافة 1500 متر في طريق غير معبد. يوجد قبرها وسط الضريح، كما يوجد بمحاذاة ضريحها مسجد صغير، تروي الرواية الشفوية أنه بني بعد تشييد ضريح لالة ملوكة، مما يحيل على مستوى الذاكرة الاجتماعية لأهل المنطقة على المكانة القدسية التي حظيت بها هذه الولية الصالحة.

ويلاحظ على مستوى القراءة العمرانية لضريح لالة ملوكة أنه اختص بعناية خاصة، نظرا لمحاذاته المسجد الذي لا زال يستقبل المصلين، ويقوم على خدمته فقيه جاء من خارج المنطقة واستقبله الناس بحفاوة وأموه عليهم لما عرفوا درايته بأمور الدين. ومن داخل المسجد يوجد باب يقود مباشرة إلى بهو ضريح لالة ملوكة، وتقابل بهو الضريح غرفة منظمة جيدا تعد كمكان لاستقبال الزوار، وبجانب الغرفة يوجد حمام صغير مكون من غرفة واحدة يغتسل فيه الزوار بماء البئر الذي يوجد في فضاء الضريح. وبجانب الحمام توجد مغارة يقال إنها مكان للخلوة بالنسبة إلى الناس الذين يعانون من الصرع أو المس الشيطاني.

أما بالنسبة إلى تاريخ ظهور الولية الصالحة لالة ملوكة حسب ما أمدتنا به الرواية الشفوية لأهل المنطقة، أنها ظهرت في عهد الاحتلال البرتغالي لعبدة، ودليل ذلك حسب ما يعتقد سكان الدوار الذي يوجد به ضريحها هو المغارة التي يوجد مدخلها بمحاذاة قبرها، حيث كان يستعملها المجاهدون في صد هجمات العدو ومباغتته والاحتماء منه. وبعد انجلاء الاحتلال البرتغالي وبوجود لالة ملوكة ستتحول المغارة إلى مكان للخلوة بالنسبة إلى الذي يعاني من الصرع أو الجهل أو المس الشيطاني.

وفي رواية أحد المسنين من الدوار «لالة ملوكة» اسم على مسمى؛ بمعنى أن اسمها يعطيك انطباعا عن تاريخها، فلالة ملوكة كانت «أَمَةً» قادمة من الجبل الأخضر، حيث كانت مملوكة لأحد الأعيان تسهر على خدمة بيته ورعي أغنامه، واسمها الحقيقي غير معروف لأحد؛ لأن لقب «مملوكة» هي من أطلقته على نفسها بعد ما كان الناس يسألونها عن اسمها. وقد ظهرت بركتها عندما رآها أحد الأشخاص وهي جالسة فوق شجرة، بينما الأغنام ترعى حبوبا تحت ظل الشجرة الذي يوجد بمحاذاتها ماء جارٍ، قيل إن لالة ملوكة هي من أخرجته بعد ضرب الأرض بعكازها لتشرب منه الأغنام بعد الانتهاء من الرعي. وبعد ظهور بركتها وانكشاف سرها

هربت لالة ملوكة إلى المنطقة التي يوجد بها ضريحها، وقد لحقها مالكها وبعض من خدامه، لكنه لم يستطع الوصول إليها بفعل احتمائها بشجرة، يقال عنها إنها شجرة «السدرة» التي لازالت قائمة إلى اليوم وتعرف بمكان للأفاعي، التي يروى عنها أنها هي من حمت لالة ملوكة من بطش مالكها الذي عاد أدراجه بعدما تبين له استحالة الوصول إليها. ويروى على مستوى الذاكرة الجماعية لسكان الدوار أنها كانت ذات زيارة عظيمة، يقصدها النساء للتبرك ببركتها، عبر طقس الاغتسال من ماء البئر الذي يوجد ببهو ضريحها؛ وذلك بعد تقديم الهدايا (التي تتنوع وتختلف حسب نوع الخدمة المراد تحصلها من بركة الولية)، والبسملة والسلام على قبرها والدعاء على أنقاضه برفع الضرر المقصود من الزيارة.

ويروى عنها كذلك، أن الحجيج بمنطقة عبدة وأسفي قبل انطلاقهم في رحلة الحج كانوا يجتمعون عندها، وكان الحجاج يلبسون الصوف المخاط من أزواجهم حتى إن الحاج لا يخلع ملبسه إلا عند عودته. وقد اشتهرت في الذاكرة الشعبية عند أهل المنطقة بـ «مولات الكنوز»؛ ذلك لما تم العثور عليه من خزائن لربما تعود إلى المتروكات التي كان يتركها الحجاج الذين لم يعودوا من رحلة الحج حسب ما يروى عند أهل المنطقة التي يوجد بها ضريحها.

ويلاحظ على مستوى المرويات التي رويت عن هذه الولية الصالحة أن ذكرها ارتبط بثلاثة مؤشرات دالة؛ يرتبط الأول بكون ضريحها شكل مكانا للاحتماء بالنسبة إلى المجاهدين ضد البرتغاليين، ويرتبط الثاني ببركة الماء ووجود نطفي في ضريحها، أما الثالث فيرتبط ببركة منحها الماء من خلال ضرب الأرض بعصاها، حيث نستفيد من ذلك طبيعة المرحلة التاريخية التي عاشت فيها لالة ملوكة، كمرحلة تاريخية تميزت بلعب الولي الصالح دورا كبيرا في تجييش الناس للجهاد ضد الاحتلال البرتغالي، ثم التدخل في بعض الأحداث وتقديم الدعم المعنوي لهم وحمايتهم، هذا بالإضافة إلى الندرة المائية التي سبق وأشرنا إليها، والتي كانت سببا في انتهاج مجموعة من الأولياء الصالحين سلوك حفر النطافي التي عمل من خلالها الولي الصالح تقديم المساعدة للسكان المجاورين لضريحه.

- **لالة زينب الكوابلية**: عاشت في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. قال عنها الصبيحي من «أقدم الصالحات بالبلد» يروى أنها من أصول رجراجية، يوجد ضريحها بسوق الغزل بالمدينة العتيقة من آسفي، كما يوجد بمحاذاة ضريحها مجموعة من البيوتات التي صارت اليوم مسكنا لبعض الأسر المعوزة، وقد لحق ضريحها إهمال كبير.

ويروى على مستوى الذاكرة الجماعية، أنها كانت مشهورة بتزيين البنات من الأطفال ليلة السابع والعشرين من رمضان، حيث يتم تقديمهن على شكل عرائس عن طريق مجموعة من الأهازيج التي ترمز إلى الأعراس، وهذا طقس يحيل إلى التمني في تزويج البنت. ويحكى على مستوى الرواية الشفوية أن هذه العادة

قديمة ترجع إلى عهد الشيخ محمد صالح، حيث كان الأهالي في السابع والعشرين من رمضان يزينون بناتهن ويذهبون بهن إلى الضريح للتبرك ببركة الشيخ.

- **السيدة خديجة بنت محمد بن محمد الزوين**: «توفيت رحمها الله ضحى يوم السبت فاتح ربيع الأول من سنة 1262 هجرية»[39]. ويصفها الفقيه الكانوني بكونها «كانت من الصالحات المباركات رحمة الله عليها»[40]. ويروى أنها كانت من مستوطنات رباط آسفي، ولربما كانت من دفينات المقبرة التي يوجد بها قبر لالة هنية الحمرية؛ لأن قبرها غير معلوم بالنسبة إلى أهل المنطقة.

- **السيدة رقية بنت عبد الله الشنقيطية**: ورد ذكرها في جواهر الكمال بكونها «زوجة الشيخ ماء العينين، كانت صوامة قوامة كثيرة تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، لها معرفة بعلم الأسماء وإلمام بالعمل والتفسير مع عفة وديانة وصيانة ولما قربت وفاتها قالت لابن أخ لها إنها تموت هذه السنة، فقال: وما يدريك؟ قالت: إن أهلنا إذا سلكوا أسفي للتبريك يموتون، ولما كان يوم الخميس قالت له ما هذا اليوم، قال الخميس أنا أختار الجمعة وأيام الله واحدة، فتوفيت يوم الجمعة من سنة 1341 هجرية، ودفنت جنوبا من قبة سيدي إبراهيم المعاشي»[41].

- **السيدة هنية بنت سيدي البكري بن حمادي**: توفيت سنة 1320 هجرية، ذكرها الكانوني واصفا إياها بالصلاح والبركة، حيث يقول: «كانت رحمها الله من الصالحات المباركات، وكانت لها دعوة مستجابة، وكانت قد عمرت بعد أبيها دهرا طويلا... إلى أن توفيت بالعمى»[42]، كما يحكي الكانوني على لسان حفيدها من جهة ابنتها الحاج الحسين أنه «لما ذهب إلى الحج رآها معه في كل موضع ذهب إليه، وعندما عاد حكت له كل المواضع التي رآها فيها»[43]. يوجد قبرها بجوار قبر أبيها بالزاوية المصباحية بآسفي.

- **السيدة رحمة الحمدوشية زوجة سيدي بومهدي المويسي**: عليها قبة بأعلى جبل الميسات، ولا زالت إلى اليوم تزار وتطلب بركتها في طلب الزواج والشفاء من بعض الأمراض. ويقول عنها الكانوني أنها «كانت رحمها الله من المباركات»[44]، عاشت في نفس الفترة التي عاشت فيها السيدة هنية بنت سيدي البكري بن حمادي.

- **لالة أم علي**: عاشت في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، يوجد ضريحها بالقرب من المسجد الأعظم في المدينة القديمة لآسفي.

---

39 ـ الكانوني، الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية ج3 ... مصدر سابق. ص 117

40 ـ المصدر نفسه. ص 117

41 ـ المصدر نفسه. ص 119

42 ـ المصدر نفسه. ص 247

43 ـ المصدر نفسه. ص 247

44 ـ المصدر نفسه. ص 251

وقد عرفت عند الساكنة بتعبدها وكرامتها المتمثلة في علاج أولئك الذين يصابون بالصرع المؤدي إلى اعوجاج الفم، حيث يروى أن رجلا متعلما كان يعاني اعوجاج الجانب الأيسر من خده، وبمكوته في ضريحها وإخلاص نيته لطقس فك الخد استطاع أن يعود إلى حالته الطبيعية، وقس على ذلك حالات متعددة صعب علاجها في باب الطب. ويروى أن اشتهارها بهذه الكرامة هو أنها كانت في أحد الأيام ذاهبة لقضاء أغراضها فضحك عليها أحد الشباب فحملت بلغتها وضربتها به فاعوج خده، حتى قامت بتمرير بلغتها عليه فعاد إلى طبيعته، وقد كانت هذه هي الطريقة التي لا زالت متبعة بالنسبة إلى الزوار في العلاج، حيث تمسك مقدمة الضريح بمخدة صغيرة مغطاة بقطعة ثوب أخضر يرمز إلى بلغة الولية، ويتم حكه على الجهة التي توجع المريض.

- **السيدة عائشة بنت عمر**: توفيت سنة 1345 هجرية ودفنت بمقبرة الرباط[45]، ويقال عنها إنها كانت امرأة صالحة ومتعبدة وزاهدة و»كانت رحمها الله تكابد من الأمراض شدة ولا تشتكي بذلك لأحد ولا يطلع على مرضها إلا بقرار الأحوال أو بتصريحها بعد الإلحاح التام»[46]، كما قيل عنها إنها «[47] كانت بنت عفيفة، لها مقام رفيع في الصبر والاحتمال، وفي باب الورع ما لا يطيقه الكثير من الرجال مقبلة على ما يعنيها مجتنبة لفضول القول والفعل، شاكرة وحريصة على تعلم ما ينفعها في دينها سريعة الحفظ ناشرة لما تسهم به من ذلك. ويقول الكانوني إنها توفيت بالسل وحضر جنازتها.

ـ لالة فاطمة محمد الزيدية: يوجد ضريحها بنواحي آسفي، وبالضبط على مشارف شاطئ لالة فاطمة المسمى على ضريحها.

ويقال إنها أمازيغية من قبيلة تمرغت من حاحة، وقد دخلت القرية التي يوجد فيها ضريحها هاربةً من أهلها الذين أرادوا تزويجها صغيرة. ويروي عنها الكانوني في القسم المخطوط من آسفي أن أصلها من حاحة، وهي بنت الولي الشهير سيدي محمد وشان، وقد «اشتهرت بقضاء الله تعالى حاجات زائريها، ويقصدها النساء خصوصا»[48]. ومن العادات التي يحكيها أهل المنطقة والزائرات لضريح الولية الصالحة التي تتطابق مع ما جاء من ذكر عند الصبيحي بخصوص هذه الولية الصالحة «أن كل امرأة زارتها في يوم من الأيام يصير عندها ذلك اليوم يوما موقرا تتزين فيه، ولا تغزل فيه ولا تحمل مكنسة بيدها. وبالجملة لا تعمل فيه عملا دنيء، قائلة إنه يوم زيارة للالة فاطمة بنت محمد»[49]؛ مما يعني المكانة القدسية التي احتلتها هذه الولية الصالحة في تمثلات النساء القاصدات لبركتها؛ إذ نلاحظ على مستوى مرويات مقدمة ضريح الولية ونساء المنطقة أنها تنال عطفا

45 ـ الكانوني، الجواهر الصفية، مصدر سابق. ص 101

46 ـ المصدر نفسه. ص 101

47 ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها.

48 ـ المصدر نفسه. ص51

49 ـ المصدر نفسه. ص 133

كبيرا من قبلهن، بسبب ما لا قته من محن بفعل رفضها الزواج وخروجها في رحلة طويلة لوحدها إلى آسفي دون أن تكثر لمخاطر الطريق. وحسب ما أمدتنا به الرواية الشفوية، يظهر من خلال الأوصاف التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية أنها كانت ذات جمال وزينة، جعلها أكثر طلبا في الزواج الذي كان يقض مضجعها ويشوش على تفرغها للعبادة، لذلك ثارت على أهلها وهربت باحثةً عن الخلوة بخالقها زاهدةً في الدنيا. وقد جاء كذلك في جميع الروايات الشفوية أنها في طريقها إلى آسفي التقت أسدا، فكان حاميها في طريقها من قطاع الطرق، ويذكر أن الأسد عندما مات أمرت بأن يدفن بالقرب من ضريحها، ولا زال إلى اليوم المكان المدفون فيه قائما على شكل غرفة بالقرب من مرقدها ويزار مرقده كما يزار ضريحها.

وقد ورد في «طبقات الإمام المسند» الرواية له عبد الله سيدي محمد بن أحمد الحضيكي الجزولي السوسي نزيل زاوية أسى من أهل القرن الحادي عشر ما نصه: «فاطمة بنت محمد من بني علا الهلالية، رابعة زمانها كانت رضي الله عنها من الصالحات القانتات الصابرات الخاشعات الذاكرات الله كثيرا العابدات، قد انتشر صيتها وعم بلاد السوس والمغرب ذكرها بالولية وأثنى عليها الناس وفشى وذاع ذكرها بالولاية والصلاح عند الخاصة والعامة في جميع الناس تؤثر عنها كرامات، وشهد بذلك كله أكابر العلماء العاملين وأهل الخير والمحبة. والذين من ذلك أن شيخنا الإمام العالم الصالح العالم الصفي الرضي الخاشع الناسك الظريف في محبة النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا ومولانا أستاذنا محمد بن صالح الملقب بالمعطي البوجعدي كتب إليها يسلم عليها ويطلب منها الدعاء، وناهيك من يحضر مثل هذا الرجل الصالح الكبير، وبطلب منه الدعاء وأخبرني من أثق به أنها تأتي الحرمين الشريفين على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وتزورهما متى شاءت، وكانت تحضر مع الأولياء والصالحين والصالحات من بيعة بعض ملوك المغرب قبل بيعة أهل الحل والعقد»[50]. هذا، وذكرها «شينيي» في كتابه «أبحاث تاريخية» باسم القديسة ـ حسب ما جاء في شهادته التي ذكرها «أرمان أنطونا» قائلا: «على مسافة قصيرة من أسفي، هناك على الطريق زاوية لإحدى القديسات، كانت أوقفت حياتها لخدمة المارة وهو العمل الصالح الذي وجده الناس لتعظيم هذه المرأة»[51].

وفعلا، نجد على مستوى الرواية الشفوية أن لالة فاطمة تعرف على صعيد ربوع المغرب بورعها، ويقصدها في موسمها الناس، وخاصة النساء، من كل صوب وحدب، وحتى من خارج المغرب (وحسب الرواية الشفوية يقام هذا الموسم في الأيام الثلاثة من شعبان)؛ مما يفسر أن هذه الولية كانت تعرف استقطابا بشريا جعلها تتفوق فيه على بعض المواسم الأخرى التي تقام في منطقة عبدة وآسفي، والتي اختص فيها أولياء من الذكور، كموسم سيدي مساهل وموسم سيدي بوزيد وموسم سيدي الكوش وغيرها من المواسم التي تحكي الرواية الشفوية أن السيدة لالة فاطنة كانت الأوفر عددا في الزيارة، بالإضافة إلى ما كان يخلقه موسمها من رواج تجاري كبير شهد عليه الصبيحي قائلا: «وفي أيام عمارة الموسم تكثر الحركة التجارية على القاعدة في الأسواق

50 ـ ورد عند محمد بن أحمد الكانوني العبدي، الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية... مصدر سابق.

51 ـ أرمان أنطونا، جهة عبدة 1930، مرجع سابق. ص 106

العظام بكثرة تزاحم الأقدام وكثرة الحاجة إلى الزينة والرفاهية وأطايب الطعام»[52]. وتحكي الرواية الشفوية أن سبب تعلق الناس بزيارة هذه الولية الصالحة يرجع إلى تشوف الناس لعطائها لهم من بركتها التي تشهد الرواية الشفوية أنها معلومة ومتحققة بالمشاهدة، كما يروى عن الكثير من الناس الذين لا زالوا على العهد بموسمها يأتون له كل عام متدرعين ببركتها التي لزمت تجربتهم المعاشة، كما هو حال زوجين من الشباب الذين كانوا يسكنون مع أهل الزوج في مدينة الدار البيضاء، وكانت حياتهم جحيما، إلى أن ذكر لهم أحدهم أن لالة فاطمة بنت محمد لها بركة فك «العكّس»[53]، فما كان منهم إلا زيارتها مخلصين النية، وبعد مرور سبعة سنوات تمكنوا من الحصول على مسكنهم الخاص. وما يشهد على هذا القول هو الشهادة التي أمدتنا بها المرأة القائمة على أشغال الضريح، حيث تروي «أنها في يوم من الأيام وبينما هي منهمكة في أشغال تنظيف الضريح، دخل عليها زوجان، قصدا الضريح مباشرة بعد السلام، فوجدا في جنباته القفل الذي تركوه بعد سبع سنوات، ففتحاه، ولما سألتهم المرأة عن السبب قالوا لها ما سبق وذكرناه». وفعلا، فالزائر لضريح لالة فاطمة يجد في البيوتات المحيطة به أقفالا متعددة، اعتقادا في بركتها على حل لعنة «العكس» في الحصول على مسكن.

ومما يروى، كذلك أن موسمها معروف بشكل كبير في أنحاء المغرب، ويروى أنه يكون في الثلاثة الأيام الوسطى من شهر شعبان، التي سألنا عن دلالتها، فكانت الإجابة أنه يوافق تاريخ ميلادها الذي يتراوح بين الأيام الثلاثة المباركة في الذاكرة الشعبية؛ لأنها مرتبطة بولادة لالة فاطمة الولية الصالحة، حيث يذكر في مولدها أنها «ولدت في شعبان وصامت رمضان وهي في المهد، كانت ترضع من ثدي أمها سحورا، ولا تعاود الرضاعة إلا بفطار أمها»[54]. وهي بهذه الشهادة ترقى إلى مصاف الأولياء الصالحين الذين غالبا ما تعرف بركتهم وارتفاع شأنهم بتميزهم منذ المهد عن الناس العاديين، كما هو مثال ما سيق من أخبار عن مريم وفاطمة الزهراء اللتين شكلتا نماذج للولاية النسائية التي تعتبر رابعة العدوية المثال الحق على ذلك، لما عرف عن مولدها، بأن بيت أهلها لم يكن فيه طعام وبمولدها حضر الطعام من السماء، كتماثل مطابق عن ما جاء في ذكر فاطمة ومريم بنت عمران، حيث يذكر بالنسبة إلى فاطمة الزهراء ما نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله[55]: «يا بنية هل عندك شيء آكل؟ فإني جائع، فقالت عليها الصلاة والسلام: لا والله يا أبي أنت وأمي».

فلما خرج الرسول (ص) من عندها، بعثت إليها جارة لها رغيفين، وبضعة لحم.

52

53 ـ يقصد ب «العكس» (التشديد على الكاف) في المخيال الاجتماعي للمنطقة المدروسة عدم تحقق المراد من العمل الذي يقوم به الشخص على الرغم من أخذه بجميع أسباب نجاح العمل، لذلك فإنه عندما يأخذ بجميع الأسباب ويكررها طلبا لتحقق مراده فتكون النتيجة عكسية، يتصف ذلك الشخص بأنه مصاب بلعنة العكس التي تقتضي منه البحث عن حلول روحانية مخالفة تماما لما يتوافق والأخذ بالأسباب العقلية أو الموضوعية، ومن الأعمال الروحانية التي تزكيها الذاكرة الشعبية النزول عند ولي صالح عرف تاريخيا ببركة حل العكس، لأن العكس يمكن أن تكون أسبابه أفعال سحر أو ربط فعلها شخص مجهول لذلك الشخص دون أن يكون على دراية بأنه مسحور بسحر العكس.

54 ـ المصدر نفسه، 51

55 ـ عن الموقع الإلكتروني: نظر في: www.shiaveb.org/v2/neus/article 6/6/2018.

فأخذته (ع) منها، ووضعته في جفنة، وغطت عليه، وقالت: لأوثرن بها رسول الله (ص) على نفسي، ومن عندي. وكانوا جميعا إلى حاجة إلى شبعة من طعام.

فبعثت حسنا وحسينا إلى جدهما (ص)، فرجع (ص) إليها، فقالت (ع): يا أبي أنت وأمي يا رسول الله، قد أتانا بشيء فخبأته لك.

فقال: فهلمي به، فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملوءة خبزا ولحما.

فكلما نظرت (ع) إليه بهتت، وعرفت أنها بركة من الله تعالى، فحمدت الله تعالى، وصلت على نبيه (ص)، فقال (ص): من أين لك هذا يا بنية؟.

قالت: هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فقال رسول (ص): الحمد لله، جعلك شبيهة بسيدة بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله رزقا حسنا، فسئلت عنه، قالت، هو من عند الله، يرزق من يشاء بغير حساب.

فبعث الرسول (ص) إلى علي (ع)، فأتى، فأكل الرسول (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، وجميع أزواج النبي (ص) حتى شبعوا، وبقيت الجعة كما هي. فقالت فاطمة (ع): وأوسعت منها على جميع جيراني، وجعل الله فيها بركة، وخيرا طويلا، وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم، والباقي بركة من الله تعالى[56].

أما بالنسبة إلى سيدة العالمين، مريم بنت عمران، التي تعد وفق ما جاء في سورة آل عمران، من النساء المشرفات والمصطفيات والمنذورات؛ إذ جعلها الله المرأة المخدومة من طرف النبي زكرياء الذي تعلم منها وهو النبي، لما دخل عليها المحراب، ووجد عندها طعاما من العنب في فصل الشتاء وهو طعام في غير وقته، إذ قال لها: «**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**» (آل عمران، الآية 37) وبقولها ذلك، تذكر سيدنا زكرياء برحمة الله وجبروته، فما كان منه إلا أن دعاه، فوهب له يحيى وهو عجوز وامرأته عاقر، وقد كان يحيى والحالة هاته، بمثابة البركة المريمية على سيدنا زكرياء؛ مما يفسر عناصر التمثلات المنغرسة على مستوى الذاكرة الشعبية الطويلة الأمد، والتي تستقي عناصر ديمومتها من التماثل مع التاريخ الاجتماعي الحافظ للهوية الجماعية في إطار البنية الناظمة لتفاعلاته الوظيفية عبر الزمن التاريخي الطويل.

56 ـ المرجع نفسه.

ومن العادات التي اشتهر بها موسم لالة فاطمة ذبح الذبائح على باب ضريحها. ومن الذبائح التي عرف بها موسمها إلى اليوم «ذبح ثور»، حيث لا زال أحد الزوار من أغنياء مدينة الدار البيضاء يقوم بهذه «الشعيرة»، التي نرى أنها استمرار للعادة التي رسخها القائد «عيسى بن عمر» حسب ما جاء في ذكر «أرمان أنطونا» قائلا: «فالمعروف أن موسما كبيرا، تقصده ساكنة أسفي وعبدة، يتوجهون إليه زرافات زرافات كل سنة من شهر شعبان. وبهذه المناسبة ابتدع القائد السي عيسى بن عمر عادة تقتضي سفح دم ثور على الضريح بعد أن تساق إليه البهيمة في بهرجة الغيطة ودقات الطبول، ثم وبعد أن تذبح الذبيحة، يتسابق الحضور بصفة جماعية في محاولة منهم لتبليل أياديهم بدماء هذه العتيرة»[57].

ومن العادات الأخرى التي أتى ذكرها أثناء انعقاد الموسم «يقوم مقدم الضريح بتوزيع بعض الألياف من نبات الدوم على الزوار المرضى، وكذا بعض حبات الشعير أو الذرة التي وبعد أن يجري خلطها بالبذور قد يكون المحصول جيدا عند حصاده، ويقوم نفر بتوزيع شيء من التراب يمسح به المريض ما يضره ويوجعه من أطرافه طلبا للشفاء كما يوزعون التمر على العواقر تيمنا وطمعا في الإنجاب، ونقودا ودقيقا وأوتادا خشبية سبق غرسها في فناء الزاوية ويتم هذا الطقس أثناء حفل يسمى (دقان الأوتاد)»[58].

- **لالة هنية الحمرية:** يقال إنها عاشت في القرن التاسع عشر ميلادي وكان قبرها معروفا، ومزارا من طرف الناس الذين لازالوا يحتفظون بصورة قبرها في ذاكرتهم القريبة، وكان يوجد بالضبط ـ حسب الرواية الشفوية ـ بحوش أسفل مقبرة الرباط، والرباط معروف في الذاكرة الجماعية لأهل آسفي بمجموعة من الأدوار منها أنه كان مكان لرباط الخيل ورباط المجاهدين الذين قاوموا الاحتلال البرتغالي والفرنسي. ويحكى كذلك أن لالة هنية الحمرية قد قدمت خدمات جليلة للمجاهدين، حيث كانت تسهر على معالجة الجرحى وإعداد الطعام، بالإضافة إلى ضيافة الغريب. لكن قبرها والمقبرة التي كان يوجد بها قبرها صار اليوم ذكرى بفعل الزحف العمراني الذي قضى على كل المعالم التاريخية لموقع للالة هنية الحمرية.

- **لالة البتول الهذيلية:** يجهل تاريخها، وقيل إنها من الهذيليين، وهي من القبائل المعروفة في آسفي، يوجد ضريحها «بدرب الحبس» من المدينة العتيقة لأسفي، وقد لحق ضريحها إهمال كبير إلى درجة أننا لاحظنا أنه تحول لمكان ترمى فيه النفايات. وقيل حسب الرواية الشفوية أنها كانت تداوي الأمراض الجلدية المعروفة على مستوى النطق المحلي بـ «موكتبة»، إذ ما كان على المريض سوى حمل حفنة من تراب قبرها وتمريره على الجسد المريض، فيكون الشفاء بعد يومين أو ثلاثة أيام.

ويحكي أهل المنطقة أنها خرجت من البحر وسكنت بالقرب منه إلى أن توفيت وتحول قبرها إلى مزار للتبرك. ومن بركاتها التي لا زالت قائمة إلى اليوم هي معالجة مرض «قطعان اللحم»، حيث ما على المريض

57 ـ أرمان أنطونا، جهة عبدة... مرجع سابق. ص 106

58 ـ المرجع نفسه.ص106

سوى الاحتكاك بحجرة البركة الموجودة بجانب قبرها حتى يعالج تماما، هذا بالإضافة إلى أنها تعد في الذاكرة النسائية امرأة جالبة للحظ، لذلك يروى أن النساء يقصدنها تيمنا من خلال الاغتسال بماء الشاطئ القريب من قبرها.

- **لالة ميرة**: توجد بالقرب من ضريح سيدي بوزيد، وهي عبارة عن عين لا تنضب، اشتهرت باسم هذه الولية الصالحة التي تحكي الذاكرة الشعبية، أن قبرها قد هدم بعدما كان محاط بالورود. ويحكى أن غالبية زوارها من النساء أو البنات الطالبات للزواج، حيث تكون زيارتها كل يوم أربعاء، يتم خلاله غسلهن وفق طقوس خاصة ترتكز أساسا على طلي جسد الأنثى الراغبة في الزواج بالحناء، وبعد طليها تقوم سيدة مختصة بالغسل وعارفة بأسراره، بغسل جسدها في جو من الصخب المرفوق بأهازيج يقال فيها: «واللاميرة، وهاك جاويات البخور، واللاميرة باش نداوي ذاك الشعور». ويروى أن الفتاة إذا لم يقضى غرضها تعاود الزيارة، وفي الأربعاء الثالثة غالبا ما يقضى غرض الفتاة. ومن الطقوس المصاحبة كذلك، تحكي الذاكرة الشعبية لأهل المنطقة من النساء العارفات، ذبح الذبائح التي قد تكون عبارة عن كبش أو دجاج أو الرمي بالثمر في منطقة جريان الماء أو الإتيان ببخور حسب الاستطاعة. ويقال كذلك إنها تعالج مرض ألم الرأس ومرض ثدي النساء، حيث ما على الزائرة سوى وضع الرأس أو الثدي عند مجرى الماء ليقضى الغرض، بشرط إخلاص النية.

2.2 ـ مخرجات الدراسة الميدانية:

إن أهم ما يمكن أن نسجله كتخريج عام من خلال معطيات الدراسة الميدانية ومن خلال استقصاء بعض مضان النصوص المناقبية، هو أن الولية الصالحة احتلت في الذاكرة الجماعية لسكان آسفي نفس الصورة القدسية التي حملها الولي الصالح.

وتفسير ذلك، يظهر في جوانب عدة نجمل أهمها في:

- أن المرأة المغربية بصفة عامة نالت الاحترام والتقدير، وتم تشريف مكانتها الاجتماعية من خلال مجموعة من الأدوار التي قامت بها عبر التاريخ، حيث نلاحظ أن المرأة تدخلت في قضايا مصيرية تهم المجتمع في المجال السياسي، وارتبط ذكرها بالتقعيد لنظم الحكم، كما تدل على ذلك التجربة الإدريسية مع كنزة الأوروبية والمرابطية مع زينب النفزاوية التي رويت حول دهاءها السياسي مرويات كثيرة. وهي أدوار ـ نلاحظ عبر استقصائنا لبعض النصوص التاريخية ـ ما كانت لتضطلع بها المرأة لولى الانفتاح الذي ميز المجتمع المغربي الوسيط الذي كان يسمح للمرأة بالظهور والبروز على مجرى الأحداث في تساو مطلق مع الرجل، كنقيض للإقصاء والتهميش الذي لاقته المرأة في المجتمعات الإسلامية المشرقية. ونرى أن سبب ذلك يعود إلى بعض المؤشرات الدالة ذات الارتباط بفترات تاريخية سابقة على دخول الإسلام إلى المغرب، حيث حظيت المرأة بمكانة روحية وازنة، جعلت المجتمع ينمذج قداستها في صورة «آلهة» حملت أوصافا متعددة لا زالت

بعض معالمها حاضرة إلى اليوم في بعض الحلي التي تتزين بها المرأة في بعض المناسبات الاجتماعية والتي كان يزين بها سكان المغرب القدامى ألهتهم «فينوس»، مما يحيل تاريخيا إلى التخارج الوظيفي بين بعض الرموز القدسية القديمة وواقع الحياة الاجتماعية الراهنة. ولعل هذه الصورة التشريفية التي نالتها المرأة المغربية عبر التاريخ الطويل، هي ما تجسدت وتخارجت مع صورة المرأة في باب الولاية والصلاح؛ إذ نظر إلى المرأة في مصاف التساوي المطلق مع الولاية الذكورية دون أدنى تمييز بينهما؛ الأمر الذي يفسر لنا، أن القول بدونية المرأة ونقصانها الديني والعقلي الذي دأبت بعض المتون الفقهية على تكريسه تأثرا بالاجتهادات الفقهية في المشرق ما هو إلا أيديولوجية اجتماعية كان الغرض منها ولا زال هو شرعنة انتظام الواقع الاجتماعي القائم على أساس التمييز البيولوجي بين المرأة والرجل المعترف به اجتماعيا، كآلية نفسية يعمل من خلالها التمثل الاجتماعي على تسويغه دون الحاجة إلى تبريره: ذلك؛ لأن الرؤية «مركزية الذكورة تفرض نفسها كأنها محايدة، وأنها ليست بحاجة إلى أن تعلن عن نفسها في خطب تهدف إلى شرعنتها. والنظام الاجتماعي يشتغل باعتباره آلة رمزية هائلة تصبو إلى المصادقة على الهيمنة الذكورية التي يتأسس عليها»[59]. ويتخذ هذا المعطى الاجتماعي للاختلاف الجنسي رمزيته وقوته الوجودية على مستوى الذهنية والتمثلات من خلال تغذية أيديولوجية التمايز الجنسي الذي يفصح عنه التشريح الفيزيولوجي للأعضاء التناسلية المتبدى وكأنه التبرير الطبيعي للاختلاف المبني اجتماعيا بين النوعي Genres، حيث يتحول إلى معطى اجتماعي خالص، يتم تعميقه في البنى الثقافية من خلال عملية إعادة الإنتاج الاجتماعي التي تظهر فيها الفروقات الجنسية في تقسيمات العمل، كتقسيمات تنصرف على الاختلاف الجنسي الذي تتقبله المرأة المهيمن عليها وتستدخله في تمثلها للحقل الاجتماعي، لكي تنال الاعتراف بدورها الاجتماعي المحدد وفق التبرير الجنسي بين ذكر وأنثى، يتخذ طبيعيته وقبوله من الهوية الجنسية للنوع الاجتماعي. وهذا المعطى الاجتماعي لا يحظر نهائيا عندما يتعلق الأمر ببروز المرأة في حقل الولاية والصلاح، حيث تحظى مكانتها بتشريف خاص جدا.

- إن ما يعطي للمرأة نفس المكانة الروحية والرمزية التي نلاحظها على مستوى التمثلات الاجتماعية للولي الصالح، هو المحددات السوسيوتاريخية التي حكمت ظهور الولية الصالحة على مستوى المغرب بصفة عامة، وعلى مستوى مجال الدراسة بصفة خاصة، حيث نسجل في هذا الباب أن ظهور الوليات الصالحات في المغرب كان مقرونا بنفس النواتج التاريخية التي حكمت ظهور الأولياء الصالحين وتعلق المجتمع بهم؛ إذ إن هذا الظهور غالبا ما كان يرتبط بالأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأوبئة والأمراض والمجاعات وغيرها من المظاهر البشرية والطبيعية التي كانت سببا في تزايد ارتباط الناس بالولاية والصلاح. لذلك، نجد أن من الوليات الصالحات من لعبت نفس الأدوار الاجتماعية التي لعبها الأولياء الصالحون، كالتوسط من أجل تحقيق المصالحة بين المتخاصمين أو التدخل من أجل تجييش الشعور الجمعي للناس اتجاه الأخطار الخارجية أو تقديم خدمات اجتماعية من قبيل توفير الماء في أوقات انحصار المطر أو الإشفاء من الأمراض وغيرها من الوظائف الاجتماعية التي جعلت الولية الصالحة تنتصب في التمثلات الاجتماعية مساوية للولي

59 ـ بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفران، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009. ص 27

الصالح من حيث القداسة التي تمنح لها، الأمر الذي يفسر لنا الخصوصية المتفردة للتدين المغربي الذي ارتبط التصوف فيه بزمن الرباطات الأولى التي ظهرت معالمها النواة في أسفي عن طريق رباط شاكر، الذي أسس أول طائفة دينية منظمة ومحكمة، نظر إليها نظام الحكم بتوجس، بسبب ارتفاع منسوب الملتحقين بها من أهل المنطقة. واللافت للانتباه، أن ظهور هذه الطائفة اقترن بالتعليم والتربية الدينية التي كانت من نتائجها تعليم النساء وتفقيههن في الدين إلى درجة أن انتشار هذه التعاليم على مستوى المغرب أدى إلى بروز نساء عالمات وفقيهات ومتصوفات وزاهدات تخرج على أيديهن مشايخ من الذكور دون أدنى نظرة نقص للمرأة في هذا الباب.

- إن حضور الولية الصالحة في التمثلات الاجتماعية، باعتبارها متساوية مع الرجل من حيث القداسة التي منحت لها، نجد له ما يفسره في باب الزيارة التي اختصت فيها وليات صالحات بقضاء حوائج ومطالب الزائرين، حيث نجد على مستوى الزيارة، أن الزوار عندما يزورون الولية الصالحة فهم لا يأخذون بعين الاعتبار الاختلاف البيولوجي بين المرأة والرجل، وخاصة الزائرات من النساء اللائي أمدتنا الدراسة الميدانية بخصوص زيارتهن للوليات الصالحات أن الولية بالنسبة إليهن تكون أقرب إلى الاستجابة لمتطلباتهن في الزواج أو إزالة لعنة العكس، وغيرها من المطالب الأخرى التي استقيناه من الرواية الشفوية، والتي تؤكد بأن طلب المرأة للمرأة يعد بالنسبة إلى الزائرات أمرا ذا أهمية بالغة من الناحية النفسية؛ لأنه في اعتقادهن المرأة الولية تكون أكثر قربا من معرفة مكنوناتهن للتساوي في الخلق بينهما، وبالتالي تكون الاستجابة أسرع، خاصة وأن المشرفة على الضريح تكون امرأة تلقب بـ «المقدمة» نظرا لمعرفتها الدقيقة بطقوس تحصيل بركة الولية الصالحة. والملاحظ كذلك، أن استجداء بركة الولية الصالحة يكون مصحوبا بالدعاء لله تعالى عن طريق توسط اسم الولية الصالحة، وهو توسط يحيل على مستوى التمثلات الاجتماعية إلى أن الولية تعد شبيهة بالولي الصالح الذي ينظر إليه كتعويض نفسي عن غياب الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب الشفاعة ورفع الضرر الذي لحق المتوسل بضريح الولية الصالحة.

- إن هذه الصورة التي حملتها الولية الصالحة في التمثلات الاجتماعية، باعتبارها متساوية في المكانة الروحية التي يحتلها الولي الصالح ترجع في جزء منها إلى الكرامات التي أخذت عن بعض الشيوخ في حقل الولاية والصلاح عن طريق خدمتهم، وهي كرامات جعلت من بعض الوليات التي جاءت في أوصافهن «يطرن في الهواء» و»يخرج من قبورهن نور» يحظين بمكانة روحية وقدسية متميزة بالمقارنة مع النساء العاديات اللائي لم يكن لهن ما يدفعن به نظرة الدونية التي الصقت بهن نتيجة عوامل تاريخية نجهل تخارجها مع واقع الحياة الاجتماعية الراهنة، بالرغم مما ذكر بخصوص الانفتاح الذي ميز المجتمع المغربي في الفترة الوسيطية والحديثة، وخاصة ما جاء في ذكر المجتمع الصنهاجي الذي اختصت فيه نساء بأدوار اجتماعية طلائعية، ما كانت لتتحقق لولى الانفتاح الكبير الذي عبر عنه المجتمع في تلك الفترة التاريخية المهمة من تاريخ المغرب،

والتي نرى بعض تجليات حضورها في التاريخ الراهن الذي لا زالت فيه الولية الصالحة تختص بنفس المكانة القدسية التي حظي بها الولي الصالح في مجمل تاريخ المغرب.

لائحة المصادر والمراجع:

ـ الوارث أحمد: التيار الصوفي في دكالة زمن الرباطات. منشورات المجلس العلمي المحلي، الجديدة 2011

ـ محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الرباط 1987

ـ القدوري عبد المجيد: المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط2، المركز الثقافي العربي، 2012

ـ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.1984

ـ مراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006

ـ القبلي محمد: الدولة والولاية والمجال، دار توبقال للنشر.1987

ـ ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار منصور للطباعة والنشر والوراقة. الرباط 1973

ـ الكانوني أحمد بن محمد العبدي: آسفي وما إليه قديما وحديثا، مكتبة الثقافة، الدينية، القاهرة.2012.

ـ الكانوني أحمد بن محمد العبدي: الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية، الجزء الثالث من تاريخ آسفي وما إليه دراسة وتحقيق علال ركوك ومحمد بالوز، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر. الرباط. 2015

ـ إكلمان ديل: الإسلام في المغرب، ترجمه محمد أعفيف، ط1، رؤية للنشر والتوزيع. 2015

ـ أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد المعروف بـ «إبن الجوزي»، تحقيق ودراسة عمر وعبد المنعم سليم. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط 1، 1997

ـ ابن تيمية في فتاوي النساء، ط1، دار الكتب العلمية، ، لبنان، 2003

ـ أنطونا أرمان: جهة عبدة 1930، ترجمه علال ركوك ومحمد بن الشيخ، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، الرباط.2014

ـ الماجري أحمد بن براهيم: المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق عبد السلام السعيدي، الجزء1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2013

ـ بورديو بيار: الهيمنة الذكورية، ترجمه سلمان قعفران، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009

ـ الموقع الإلكتروني: www.shiaveb.org/v2/neus/article.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com